حضور المرأة والقضية الفلسطينية في رواية " نساء في الجحيم" لعائشة بنّور

الدكتورة: نصيـــرة زوزو
طالبة الدكتوراه: إيمان بوعافية
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكـــــرة

عناصر المداخلة:

1- في ماهية الأدب النسوي.
2- مصطلح الأدب النسوي بين القبول والرفض.
3- حضور المرأة في رواية نساء في الجحيم:
3-1- تجلي اللمسة الأنثوية من خلال مرسلة العنوان.
3-2- الراوي وكثافة الأصوات النسائية.
3-3- الشخصيات النسوية: صفاتها ودورها وصورتها.
3-4- تقاطع صورة المرأة الفلسطينية والجزائرية:" تصوير الثورة الفلسطينية وتخليد الثورة الجزائرية بصوت المرأة".

1- في ماهية الأدب النسوي:

إن أبسط تعريف يمكن أن يُقدم للأدب هو أنه تجربة إنسانية شعورية تعكس أحاسيس الإنسان اتجاه هذا الواقع بكل ما فيه من قضايا ومفارقات وأحزان وألام. ولكن هل التعبير الإنساني بهذا المفهوم يبقى حكرا على الرجال دون النساء؟

جاءت الكتابة النسوية لتبرز قدرتها على رفع التحدي وإثبات هويتها ونظرتها إزاء هذا الواقع، وذلك انطلاقا من سطوع نجم العديد من الأقلام الفذة التي أثبتت وجودها في ميدان الكتابة الأدبية بعامة والروائية منها على وجه التخصيص، ولننظر فقط

إلى" أحلام مستغانمي" التي فاقت مبيعات ثلاثيتها المشهورة المليون نسخة، وهذا خير دليل على حضور المرأة بشكل لافت في مجال السرد العربي مؤخرا، وهو يدل أيضا على محاولتها لرفع صوتها إثباتا لحضورها في مجال الكتابة الإبداعية بعامة.

وإذا تصفحنا أغلب الكتب التي تناولت مفهوم الكتابة النسوية، نجد أغلبها يدور حول التساؤل الآتي: هل الكتابة النسوية هي ما تكتبه المرأة أو هو ما يكتب حول هذه المرأة؟

والواقع أن المقصود بالكتابة النسوية عند البعض هو أن يكون النص الابداعي مرتبطا بطرح قضية المرأة والدفاع عن حقوقها دون ارتباط أن يكون الكاتب امرأة [1] فهو الأدب الذي يؤكد وجود إبداع نسوي إلى جانب إبداع آخر ذكوري، ولكل منهما هويته وملامحه الخاصة وعلاقته بجذور ثقافة المبدع وموروثه الاجتماعي والثقافي، ويعكس نظرة المرأة إلى ذاتها وإلى الآخر، ويصف مشاكلها وآلامها الناتجة عن صراعاتها الداخلية والخارجية في اصطدامها بالمجتمع.

وتعرفه أجلتون بقولها: إنه((ذلك الأدب الذي يسعى للكشف عن الجانب الذاتي والخاص في المرأة بعيدا عن تلك الصورة التي رسمها لها الأدب لعصور طويلة خلت)).[2]

وإذا أرجعنا البصر إلى الوراء وجدنا أن المرأة حضرت بإبداعاتها منذ القديم، إذ ظهرت شاعرات أثبتن وجودهن من خلال تلك المقطوعات الشعرية التي كتبتها معظم الشاعرات في العديد من الاغراض بدءا بالخنساء التي تعد رائدة المراثي في العصر الجاهلي وصولا إلى ولاّدة بين المستكفي التي كانت تقارع كبار الشعراء الذين أنجبهم العصر الأندلسي.

إن الكتابة النسوية من هذا المنظور تعني الكتابة التي تتمايز بها المرأة عن كتابة الرجل، في الوقت الذي يرفض الكثيرون فيه وجود كتابة مغايرة تنتجها المرأة العربية استحياء لذاتها وشروطها ووضعها المقهور.[3]

2- مصطلح الأدب النسوي بين القبول والرفض:

تباينت آراء الكاتبات في تبني مصطلح" النسوي" ورفضه، إذ رفضت بثينة الناصري فكرة تجنيس الأدب قائلة: لا أحب أن يسألني أحد عن الأنوثة والذكورة في الكتابة، ولم أشغل نفسي يوما بهذه المسألة فعندما أكتب تبدأ عملية الخلق ويتحول الخالق

إلى كائن لا ينتمي إلى جنس بعينه ولكنه يبدع إناثا وذكورا، كما عبّرت سهام بيومي عن رفضها للمصطلح بحدة بقولها:" إن من تقبلن ذلك من الكاتبات هن مجرد نساء يتقاضين الكتابة ولسن أديبات حقيقيات، وهن فرضن تلك القيود على أنفسهن قبل أن يفرضها أحد"، كما رفضت ليانة بدر بأن تلقب بأنها كاتبة نسوية بل هي كاتبة أدب في العموم.[4]

وتقول الناقدة والأديبة حنانة مونية في تعريفها للكتابة النسوية أن الأدب النسوي قوامه المرأة والتعامل مع مصطلح الأدب النسوي من قوام ثنائية لا يؤدي إلى التصنيف داخل النتاج الادبي.[5]

كما يذهب الناقد محمد جلاء إدريس إلى رفض مصطلح الأدب النسوي واستبداله بالأدب الأنثوي وهو((ما تكتبه المرأة من أدب في شتى الميادين مقابلا لما يكتبه الجنس الذكوري دون أن يكون هذا الأدب سينطوي على أحكام تعلي أو تحط من جانب الأنثى في ميدان الواقع)).[6]

ويبقى هذا المصطلح معقدا يخضع في تعريفه ثم في قبوله أو رفضه لوجهة نظر أصحابه، على أننا نطرح الآن السؤال الآتي: كيف حضرت المرأة وكيف تم تصويرها في رواية" نساء في الجحيم" للروائية الجزائرية" عائشة بنور"؟

3- حضور المرأة في رواية نساء في الجحيم:

3-1- تجلي اللمسة الأنثوية من خلال مرسلة العنوان:

يعد العنوان المنطقة الأولى بصريا ودلاليا التي يقع فيها حدث التصادم بين القارئ والنص، فهو يشغل منطقة استراتيجية في عملية تلقي النص، وتعمل القراءة المتأنية والمتفحصة له على إمدادنا بمعلومات أولى عن مضمون النص وخفاياه، بل قد تكون وفيرة في بعض الأحيان.

العنوان أول عتبة يلتقي بها القارئ قبل الدلوف إلى النص، وهو- بناء على ما قلناه آنفا- أميز أيقونة يمكن أن تكشف عن أسرار العمل الابداعي بل عن صاحبه في بعض الأحيان، وهذا الذي لاحظناه ونحن نقرأ عبارة:(نساء في الجحيم) هذا العنوان الذي نلمس من خلاله ملامح أنثوية صارخة مما يوحي أن صاحبته امرأة. هو عنوان يثير العديد من التساؤلات ويبعث في المتلقي كثيرا من الدهشة والصدمة، فأي جحيم هذا الذي ألقت فيه عائشة بنّور النساء؟؟ تتكشف الإجابة بقراءة المتن الذي عبّرت الأديبة من خلاله عن

الجحيم الذي تحياه المرأة الفلسطينية في ظل الاستيطان الصهيوني، والذي يزيد من تعميق هذا المدلول كتابة العنوان باللون الأحمر لون الحرب والدم والنار والثورة والغضب، كما أنه لون العاطفة، وهذا ما تعبّر عنه الرواية أيضا وهي تقص تفاصيل قصتي حب أيلول وأنديا وغادة وغسان كنفاني هذا الاسم اللافت والسحري الذي يشدّ المتلقي إلى قضية واحدة لا ينزاح عنها مطلقا، إنها القضية الفلسطينية التي انشغلت بها عائشة بنور فسال مدادها معبرا عن لوعة فقدان الوطن.

صاحبة هذه الرواية- إذا- امرأة ومحورها المرأة، ومن غير المرأة يحسن التعبير عن همومها وأحزانها وأفراحها. إن هذا الاهتمام بالمرأة نسقطه على معظم كتابات" بنّور"، وهذا ما توحي به قراءة كثير من أعمالها أو عناوينها التي تحمل لمسة الأنثى مثل: الموؤودة تسأل... فمن يجيب؟(مجموعة قصصية)، وسقوط فارس الأحلام(رواية)، واعترافات امرأة(رواية نالت بها جائزة الاستحقاق الأدبي بلبنان سنة 2007)، وأنين عاشقة(قصة)، وزهور زيراري.. الشاعرة السجينة(قصة)، والسوط والصدى(رواية تحكي معاناة المرأة الجزائرية خلال العشرية السوداء)، كلها أعمال تدل على أن" عائشة بنّور" قلم نسوي متميز حمل هموم الكتابة عن المرأة وانشغل بقضاياها.

3-2- الراوي و كثافة الأصوات النسوية:

الراوي في النص السردي هو الشخصية التي توكل إليه مهمة قص الأحداث. وبالعودة إلى رواية" نساء في الجحيم" نشهد أن الحضور النسوي يتكثف هنا كذلك، ونقدم ذلك في الجدول الآتي:

الراوي	الجنس	الصفحة
أيلول	أنثى	7- 17
يافا	//	18- 25
أيلول	//	26- 75
غير معروف	؟	76
أيلول	//	77- 137
أندريا	ذكر	138- 151
أيلول	أنثى	152- 155

غادة	//	194 -156
أيلول	//	232 -195
غادة	//	234 -233
أيلول/ غادة/ غير معروف؟(بالتناوب).	//	268 -235

يطغى- إذا- من خلال هذا الجدول الصوت النسائي على مدار صفحات الرواية ويأخذ صوت أيلول القسم الأكبر منه، ونشهد مثل هذا التكثيف أيضا حينما تحيل الراوية الكلمة لشخصية أخرى التي تكون نسوية في كثير من الأحيان. إن هذا التعدد في الضمائر يعطي لشتى شخوص الرواية ديناميكية وحيوية من حيث إمكانية الحديث أو التحاور فيما بينها على أن ملامح الحزن والمأساوية تطغى على كل صوت وتلف عالم الحكاية وتغلفها بحس مأساوي وفجائعي.

تستهل رواية الأحداث بصوت الراوية" أيلول" وهي بطلة الرواية التي تقص علينا حكاية مأساتها بعد تفجير طال منزلها بـــ" عكّا" وإقامتها بعد ذلك بأحد المخيمات(عين الحلوة) بلبنان، لتنفتح بعد ذلك ذاكرتها وتبدأ بقص تفاصيل حكايات آلام التهجير والشتات والضياع، لتتلقف بعد هذا شخصية يافا(صديقة البطلة أيلول) عملية القص وتتحدث عن تفاصيل أخرى منها حب أيلول للحرية والثورة وربطها بين الثورة الفلسطينية والجزائرية، ويتواصل السرد بطريقة تناوبية بين شخصيات نسوية ثلاث هن: أيلول ويافا وغادة، ولا يظهر بينهن إلا صوت ذكوري واحد هو: صوت أندريا صديق أيلول الذي صورته الرواية على أنه يهودي، ليكتشف فيما بعد أنه فلسطيني اختطف من قبل فرقة من الجنود الإسرائيليين من مربيته في إحدى الغارات، واسمه الحقيقي ياسين، سُميّ به تيمنا بالشيخ ياسين، ينضاف إلى هذا حضور صوت خفي بين الفينة والأخرى صوت لا نعلم حقيقته وهو يشبه الراوي العليم في الروايات الكلاسيكية.

3-3- الشخصيات النسوية: صفاتها ودورها وصورتها:

الحضور النسوي يكاد يكون طاغيا في رواية نساء في الجحيم، والشخصيات فيها تتوزع بين التخييلية والمرجعية هذه الأخيرة التي تميّز هذا العمل الروائي بطريقة نكاد نقول معها: إنها رواية مجتزأة من نسيج الحياة والواقع. أما عن الشخصيات النسائية فنقدمها فيما يأتي:

أيلول: هي راوية الأحداث وبطلة الرواية، وفي هذا الصدد نعود إلى حديث" فيليب هامون" عن الشخصية، فمن حيث هي مدلول نجد أن الكتّاب يلجأون إلى طرق متباينة لتقديم شخصياتهم الروائية، فهناك من يدقق رسمها، أو من يحجب عنها كل وصف مظهري، وهناك من يقدمها بشكل مباشر، حين يخبرنا عن طبائعها وأوصافها، أو يوكل ذلك إلى شخصيات أخرى، كما قد يكون التقديم بشكل غير مباشر، حين يترك الكاتب للقارئ أمر استخلاص النتائج والتعليق على الخصائص المرتبطة بها من خلال الأحداث التي تشارك فيها، أو عبر الطريقة التي تنظر بها الشخصية إلى الآخرين.[7]، أما الشخصية من حيث أنها دال فتظهر حين« تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخص هويتها».[8]

فالروائي يحاول وضع أسماء منسجمة ومناسبة لشخصياته، بحيث تحقق للنص مقروئيته وللشخصية احتماليتها ووجودها، وبمقدوره أن يطلق عليهم ألقابا مهنية، أو أن يعينهم بألفاظ القرابة، كما بوسعه تسميتهم نسبة إلى مواطن إقامتهم، أو أن يطلق عليهم صفات أو عاهات تميزهم أو تجعلهم مختلفين عن غيرهم، أو يضع لهم أسماء مجازية أبعد ما تكون في الدلالة عليهم، أو قد يستعيض عن كل ذلك باستعمال الضمائر النحوية المختلفة.[9]

فالأسماء إشارات سيميائية دالة على جوهر الشخصيات، بحيث تسهم في تعميق وجودها الفني، وإذا عدنا إلى اسم البطلة نقول: إن أيلول شهر ينبئ بنهاية فصل الحر والجفاف وبداية نزول المطر وخصب الأرض، ولربما أرادت الروائية باختياره أن تدعو إلى التغيير في الوعي العربي بعامة، وبضرورة أن ينزل الغيث على الأوطان ويكتسح كل شيء ليقضي بذلك على كل قحط وجفاف وموات.

تصف أيلول نفسها فتقول:((اسمي أيلول، ابنة فدوى القاسم وسالم البكري، أعشق التراب واللون الأخضر، رومانسية وصريحة، قلقة ومهمومة وكثيرة التفكير(..) أنا كل الفصول الأربعة شتائية وباردة وقاسية، ولكن ماطرة بالحب(..) أنثر العطر والجمال في كل مكان، فتزهر أرضي رغم جروح الدهر وصمت الخلان، وأنوح حد الجنون كلما يدغدغني الفقد، فأحن إلى أخي صابر وخبز أمي ورائحة غليون أبي وعصفوري طائر المحنا..)).[10]

وتصفها صديقتها يافا قائلة:((أيلول هي مدرّستي الأولى في مدارس اللاجئين، كانت تعلمنا الحب والسلام، وكانت تسرق مساء كل يوم ثلاثاء لحظات للحديث عن النضال والحب والثورة(..) كانت أيلول أنيقة في تفاصيل ملابسها(..) وبقوامها الممشوق تشعل شظايا نار حارقة من حولها، تغرّد البلابل من حولها وهي جسد أوردته متفحمة، وانكسارات أنثى طلقت روحها الفرح...)).[11]

ويتواتر بهذا الشكل على مدار صفحات الرواية مثل هذا التصوير على لسان البطلة نفسها أو شخصيات روائية أخرى، وتتكاثف الصور كلها لتعطي صورة جميلة عن هذه الشخصية من جهة(قبل حلول المأساة)، ولتُصوّر نفسيتها المنهارة من الداخل بفعل التهجير والفقد من جهة أخرى.

أيلول هي الصورة المثلى للمرأة الفلسطينية، المثقفة(أستاذة التاريخ) والرومانسية والحالمة... ذات مجروحة ومدمّرة تعيش حرمانا عاطفيا، فقدت الحبيب(أندريا) والأب والأم والأخ والمنزل ثم الوطن، تعيش غربة واغترابا في الوقت نفسه، تعيش دون هوية، من عكّا إلى مخيمات اللاجئين إلى فرنسا لينتهي بها المقام عند غادة– قريبة أمها– بمدريد، ونحسب أن اختيار مدريد كان موفقا ومقصودا من قبل الروائية، فقد كانت إسبانيا للعرب يوما ثم سلبت منهم، كانت الأندلس وستظل الحلم والفردوس المفقود والتعويض عن الوطن الأم.

غادة: هي قريبة أم أيلول وحبيبة غسان كنفاني هذا المبدع الفلسطيني الذي اغتالته أيدي الإجرام غدرا، تستحضره الروائية كرمز للحب والنضال، إذ تصور الرواية قصة حبه لغادة من ناحية وهيامه بوطنه الجريح من ناحية أخرى. يتحدث عن عام النكبة قائلا:((عام 1948 الكارثة، هي الهزة التي أفقدتني توازني، أفقدتني تركيبتي الاجتماعية وأورثتني الهجر والترحال، ولم تعد المدن تعرفني فأغلقت الأبواب والنوافذ، وأصبحت المدن محرمة ومحاصرة، وكان المنفى، وكان أهلها متعلقين بنضالهم وأفراحهم، وأعراسهم مواويلهم حزينة وأهازيجهم ملونة بالدمع والخوف والجوع والعري، أصفاد تطوق المعاصم والرقاب في السجون. أعينهم تقذف حمم النار في كل ريف وتغرز في الصخر والصحراء قنابل الدمار، وتطبع قبلة الحنين على حبات القمح وأشجار الزيتون وزهر اللوز مودعة)).[12]

غسان كنفاني الشخصية المرجعية في الرواية تعمل الروائية على بعث سيرته، ليتقاطع بهذا الواقعي والتخييلي، هذا الواقعي الذي نستشعره أكثر من خلال استحضار شخصية غادة التي تعود بنا إلى الكاتبة غادة السمان خصوصا أن الروائية تدوّن في ذيل إحدى الصفحات عبارة:" رسائل غادة السمان ص 8"، كما تتحدث عن رسائل غسان لغادة، هذه المرأة التي تنظر إلى هذا الرجل على أنه فلسطين نفسها... إنه رمز للوطن وللأمة وهو القلب النابض كآلاف الشهداء الذين كُفّنوا بعلم فلسطين. تقول عنه غادة:((كانت رسائله لي صورة للمناضل الذي يحيا من جديد، يحيا من أجل العشق للقضية بعدما هزل الجسد وبقيت الأنفاس تشم رائحة الأرض الزكية المعطرة بأريج دم الشهداء(..) فارس شهم يحمل درعا الوطن على صدره، ويرتدي خوذة الحرية، فارس الظّل الحزين يحوم حولي.. كان يسكن قلبي وعقلي. غسان ثائر وخائب مثل الملايين في هذا العالم، وهو الذي جمع بين حبين كبيرين، حب الوطن وحب امرأة)).[13]

هكذا– إذا– كانت صورة الرجل عند المرأة، فكيف كانت الصورة العكسية؟

مثّلت غادة في الرواية صورة للمرأة الحالمة والشاعرة والعاشقة– وهي الصورة المشابهة لأيلول مع أندريا– كما كانت رمزا للحب والوطن في الوقت نفسه عند غسان كنفاني. قال في أحد رسائله إليها:((أنت في جلدي، وأحسك مثلما أحس فلسطين، ضياعها كارثة بلا أي دليل، وحبي شيء في صلب لحمي ودمي وغيابها دموع تستحيل معها لعبة الاحتيال)).[14] ويقول في موضع آخر:((هذا الوجه الجميل يذكرني بطفولتي وبمدينتي وأعماقي، ضوء ما ينفذ إلى أعماق أعماقي)).[15]

صوّرت الرواية غادة امرأة تفترسها الغربة كذلك، كما كانت كثيرة السفر والترحال من بلد إلى بلد تحمل وجعا داخليا على الدوام، امرأة لا تعرف مكانا للاستقرار، وهذه الصفة تلتصق بشتى شخصيات الرواية ومثلها صفات أخرى هي الوحدة والقلق النفسي وألم الفقد، الأمر الذي يدل على أن الشخصيات الروائية تعيش تشظيا حقيقيا وعدم استقرار جرّاء أعباء التهجير الذي فَرض عليهم الانفصال عن ذواتهم وأرواحهم.

يافا: هي صديقة أيلول، يحيل اسمها على مدينة فلسطينية– ومثل هذا اطلاق اسم **نابلس** على شخصية أخرى– وهذا يعبّر عن هوس مكاني وشعور بالمرارة وألم الفقد" فقد المكان". يافا فتاة فلسطينية أخرى تعيش بمخيمات اللاجئين تعاني هي الأخرى ما تعيشه

نظيراتها، وهي على الرغم من ذلك تقص حكاية حب أيلول وأندريا وسط مأساة الإبادة والتهجير.

تتقاطع قصتا أيلول وأندريا مع غادة وغسان لتقدما صورة واحدة عن وحدة النضال والحب في الوقت نفسه. تقول أيلول:((النضال هو حضن الثورة والحب هو التورط في القضية. العشق والنضال توأمان، فالعشق هو الألم والحياة بزهوها وطقوسها ونشوتها)).[16] وتقول غادة في الصفحة الأخيرة من الرواية منهية أحداث القصة المتخيلة:((الحب والنضال هما وجهان لعملة واحدة، أوجه الهزيمة والمرارة والشكوى والعتاب والألم والضياع والحرمان بفقد الوطن والحبيبة، هو نضال من أجل البقاء. الحب يكشف بعدا آخر من أبعاد الشخصية الثورية التي تناضل من أجل الحب والسلام، فمن حق هذا المناضل أن يحب، ومن حقه أن يعيش لحظة حلم من عمره، هو يدرك أنها قد تكون الأخيرة لكنه يستمر في نضاله وفي حبه. كيف نطلب من المناضل ان يكون إنسانا ولا يخفق قلبه ولو لساعات من العمر الباقية)).[17]

لقد أحسنت الروائية التعبير عن وحدتي الحب والنضال في ظل تلك الظروف القاسية التي تعيشها شخصيات: أيلول وأندريا، وغادة وغسان، فجاءت كلماتها متناغمة جميلة تعبّر عن شعور صادق وحب عميق للوطن حين أصبحت الشخصيات النسائية رمزا لفلسطين نفسها، وأضحى الوطن والحبيبة شيئا واحدا، وهو أيضا تعبير رائع عن وحدة الحب والنضال تطلعا نحو الانطلاق والحرية والمستقبل.

تزخر الرواية كذلك بشخصيات نسائية كثيرة نذكر منها: ماجدولين/ فدوى/ ميمنة/ هاجر/ أميمة/ أم غسان/ أوليفيا/ دلال المغربي/ ليلى خالد/ شادية أبو غزالة/ زهور زراري/ جميلة بوحيرد/ حسيبة بن بوعلي/ جميلة بوعزة/ مريم بوعتورة.... إلى غير ذلك من الشخوص النسائية التي تكاد تطغى في النص الروائي على كل صوت رجالي، تحكي الراوية تفاصيل تهجيرهن ومقاومتهن وعشقهن للأرض وموتهن بالأمراض داخل المخيمات وتعرضهن للقصف من قبل الإسرائليين.... وقد لا نعجب من هذا الحضور النسوي، فالرواية أولا وأخيرا حكايا عن معاناة المرأة الفلسطينية.

ويمكن أن نلخص صفات وصور الشخصيات النسائية بعامة في هذا العمل الإبداعي فيما يأتي:

المناضلة	المقهورة	العاشقة
الثورية	المهجّرة	الحالمة
البطلة	المشردة	الرومانسية
المقاومة	المهمومة	الشاعرة
الشجاعة	القلقة	.....
القوية	المنكسرة	
.....	.....	

3-4- تقاطع صورة المرأة الفلسطينية والجزائرية(تصوير الثورة الفلسطينية وتخليد الثورة الجزائرية بصوت المرأة):

لا تقف الراوية عند تصوير الثورة فقط، بل إن المميز في الرواية تقديم الوجه المشرّف للمناضلات والثائرات الفلسطينيات اللواتي رفضن العبودية فانتفضن في وجه العدو الصهيوني، وكل هذا يتم بخط نسوي كذلك، لذلك نؤكد دوما على حضور المرأة في شتى تشكيلات هذا النص الإبداعي بدءا بالعنوان إلى متنه وحتى آخر سطر فيه.

تتحدث أيلول إلى يافا بلغة غاضبة عن نكبة 1948 عام الحزن والمأساة الانسانية للشعب الفلسطيني:((النكبة يا يافا حولتنا إلى لاجئين ومجانين في مخيمات الضياع، وعشرات المجازر والفظائع الإجرامية(مذابح خان يونس، دير ياسين، صبرا وشتيلا، بيت لحم، غزة... الخ) واغتصاب أراضي أجدادنا. هي هدم أكثر من قرية وتدمير أكثر من مدينة وتحويلها إلى مدن يهودية بعد محو كل معالمها، وحرق مزارع وبساتين أبائنا. النكبة هي طرد معظم القبائل البدوية وتدمير الهوية ومحو الأسماء الجغرافية العربية وتبديلها بأسماء عبرية ورسم خريطة جديدة على أرض الواقع وعلى أجسادنا(..) النكبة هي الصمت الرهيب على تشردنا، النكبة هي سرقة أحلامك وأحلامي وأحلامنا والسفر بها عبر غارات جوية متتالية تجتاح المدن النائمة على جراحها والثكلى بمواجعها كل ليلة. النكبة هي مساحة الخريطة التي تضيق وتضيق بنا في المخيمات فيكون الانتظار والوقت المقيت)).[18] تقول في موضع آخر عن الغزو الاسرائيلي:((أبشع المجازر والجرائم كانت

ترتكب بوحشية ولا تعترف بحق المواطنين العزل والأطفال والنساء، ويد الاعتقال طالت كل كبير وصغير)).[19]

وتصف بعد هذا مأساتها بعد قصف طال بيتها:((رمى بي الدوي بعيدا، وجروحي تدمي من شظايا القصف(..) هرولت مسرعة أجر جسدي النازف إلى مكان بيتي. لم أجده، كان قد افترش الأرض بساطا من الركام(..) وعدت أفتش بين الركام عن بيتنا وأمي وأبي وأخي، كانت الجثث محترقة ومفحمة...)).[20]

يتكرر هذا الجو الجنائزي أكثر من مرة داخل المتن الروائي ليدل على هول المأساة وفجيعة الفقد، يُكَرر بطرائق أخرى على لسان البطلة وبقية الشخصيات النسائية اللواتي رفض كثير منهن هذا العدوان فحملوا السلاح مدافعين عن وطنهم، وهنا تسترسل الراوية في سرد الموضوع الرئيس لأحداث هذه القصة المتخيلة بتصوير معاناة المرأة الفلسطينية من جهة وحملها السلاح للدفاع عن الأرض وتصوير بطولاتها من جهة أخرى.

تبعث الروائية أجزاء من سير مناضلات فلسطينيات، فتتحدث عن شخصية دلال المغربي التي نسقط قصتها على دلال المغربي الفلسطينية التي قادت عملية فدائية أسفرت عن استشهادها.

تسرد البطلة أيلول قصة كفاحها الذي استمدته كما تقول من الثورة الجزائرية المجيدة ومن الشعب الجزائري الذي تقول عنه:((شعب مناضل، لم يكف لحظة عن الكفاح ليعيش تحت ظل الشمس المشرقة، ومن ثمة عززت ثقتي بقضيتي ونضالي من أجل فلسطين الحبيبة، نضال جميلة بوحيرد وحسيبة بن بوعلي وجميلة بوعزة وأخريات. عذابهن داخل السجون الفرنسية وأجسادهن المصلوبة تحت أسلاك الكهرباء (..) ولّدت في نفسي القوة التي حوّلتني من امرأة مهزوزة ومكسورة بفعل التهجير إلى امرأة صلبة كجميلة بوحيرد وقوية كمريم بوعتورة وذكية كزبيدة ولد قابلية، وحازمة كفضيلة سعدان)).[21]

تتحدث بعدها دلال المغربي عن عذاب جميلة بوحيرد في السجون الفرنسية فتقول: ((كان ليلها طويلا وحزينا، آهات عليلة تنبعث من جسد مضرج بالدماء، غصص في الحلق، ترعب الجلاد في عقره وترمي به في حفر التيه. أجمل فتاة أتعبت الجلاد ولم تتعب، عصفورة جريحة تصارع الجلادين، مصلوبة، تنتفض للمسات التيار الكهربائي وهي تهذي" أمنا الجزائر")).[22]

تتحدث هذه الشخصية عن صمود المرأة الجزائرية المناضلة إبان الثورة الجزائرية التحريرية، امرأة صمدت في وجه جلاديها فأبهرتهم، وكأننا بدلال تخاطبنا قائلة: إذا كانت المرأة الجزائرية بهذه الصلابة فلما لا تكون المرأة الفلسطينية مثلها، تيمنا بصمود المناضلة الجزائرية ونضالها وصبرها ورغبتها في الحرية والانعتاق من براثن المستعمر.

زهور زراري مناضلة جزائرية أخرى تتحدث الراوية أيلول عن التعذيب الذي تعرّضت له في مدرسة كانت من المفترض أن تكون مركزا للعلم والتعلم، ولكن المستعمر حوّلها إلى حجرات للتعذيب السادي. والروائية بهذا تقدّم مفارقة عجيبة بين شعارات فرنسا المزيّفة عن الحرية، والمساواة، والأخوة، واستخدام دور العلم والثقافة للتعذيب وخنق أصوات المطالبين بالحرية.

ويعضد هذا الصوت صوت غادة حين تقول عندما وطئت قدماها مطار شارل ديغول بفرنسا:((... وكلما أدخل المطار يذكرني الماضي بقوله" أيها الفرنسيون لقد خسرنا معركة، لكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره" وارتسمت على محياي ابتسامة ماكرة وراحت بي الذاكرة إلى حرب فرنسا على الجزائر...)).[23]

تتحدث أيلول عن سجن المناضلة زهور زراري، وتضيف إليها صورة أخرى هي المرأة الشاعرة، حيث كانت تكتب أشعار الحب والسلام والوطن وهي بالسجن، أشعار امرأة تعيش الظلم والقهر والاستعباد وتغّيب داخل الزنزانات. تقول:

((أحلامي المجنونة
تصطدم بالقضبان
تنزف ثم تسقط...
تلهث داخل زنزانة
فالقطار صار بعيدا.)).[24]

تحاول الروائية على مدار صفحات روايتها عقد مقارنة بين ما فعله الفرنسيون في الجزائر وما يفعله الصهاينة في فلسطين، جاء هذا على لسان المناضلة دلال المغربي حيث تقول:((لا يختلف الاستيطان الصهيوني لفلسطين عن الاستدمار الفرنسي للجزائر،

الكل كان ضد الإنسان والحرية، كان الوجود واحدا والعمليات القمعية واحدة وإن اختلف روادها، فالسياسة المتبعة تتطور وتنسج خيوطها بأشكال جديدة)).[25]

وكأن الروائية تذكرنا بأن الخطر الأوحد الذي تعانيه الأمة الإسلامية في مجابهة الغرب هو نفسه يتكرر لكن بأشكال متباينة، ونحسب أنها هنا تطرح قضية علاقة الذات بالآخر، هذه الذات المأزومة التي تعيش صراعا داخليا وصراعا مع الآخر الذي يحاول قمعها والقضاء على هويتها.

تستحضر دلال المغربي كذلك صورة المناضلة الجزائرية مريم بوعتورة، التي تقول أنها أحبتها كثيرا ورأت أنها تشبهها في حبها للوطن، هذه المرأة التي عاشت حياة الترف ورفضت الزواج لأنها كما تقول:((أنا لن أتزوج، سألتحق بالثورة وأدافع عن وطني، وهكذا كانت تقول دلال المغربي: أنا تزوجت الوطن)).[26]

كانت مريم تنتظر اليوم الذي تلتحق فيه بصفوف المناضلين، ولمّا جاء ذلك اليوم خَطَت بسعادة وفرح نحو الجبل، كما كانت خطوات دلال المغربي وهي تلتحق بالحركة الفدائية الفتحاوية للثورة الفلسطينية.

عملت مريم ممرضة في الجبل وكانت إلى جنب مهمتها هذه ترفع من معنويات المصابين وتعزز ثقتهم، وهذا يدل على دور آخر نفسي كانت تقوم به المرأة في الحرب، حيث كانت تقدّم دفعا معنويا للفدائيين. تقول أيلول لصديقتها الصحافية ماجدولين:((وسط جحيم المعارك الضارية اقتحمت ياسمين– كما فعلت ذلك دلال المغربي– رفقة أخواتها المناضلات ساحات المعارك وشاركت في القتال وهي تعايش شعبها أبشع الصور لأجساد منكل بها وجثث مترامية هنا وهناك أو مفحمة أو ممزقة الأطراف نالت منها وحشية المستعمر الفرنسي والإسرائيلي بعد نكبة 1948)).[27]

وتضيف في موضع آخر:(– أتعرفين ماذا قالت هذه الجميلة يا ماجدولين؟

لقد قالت:

- أفضل أن استشهد بين إخواني المجاهدين ووسط أبناء شعبي في الجزائر الذين أحببتهم وأحبوني وهكذا كانت تقول دلال المغربي)).[28]

وتواصل الرواية بطريقة سرد تناوبي بعث سيرة دلال المغربي ومريم بوعتورة، مع عقد مقارنات واسقاطات لحياة كل واحدة منهما على الأخرى، إيمانا من الروائية بتطابق

شديد بين الثورتين، وهكذا تفعل وهي تتحدث عن سير شخوص مناضلات أخريات أو وهي تستحضر أسماء نساء شاركن في الجهاد ووقفن إلى جانب الرجال في ثورتهم، ونذكر منهن: شادية أبو غزالة، ليلى خالد، فاطمة الزهراء بوجريو، زيزة مسيكة، حورية مصطفاي، مليكة خرشي، فطيمة بن سمرة... وغيرهن كثيرات.

لقد استطاعت الروائية عائشة بنور بعملها هذا الكشف عن دور المرأة المحوري في الأعمال النضالية وأن تلامس الجرح الفلسطيني وذلك من خلال محاكاتها لواقع النساء الفلسطينيات إثر عمليات قصف منازلهن وقتلهن وتشريد بعضهن ورميهن بمخيمات اللاجئين، إضافة إلى تصوير بطولاتهن واستشهاد بعضهن في ساحات الحرب، وهن في كل ذلك صامدات صبورات على نوائب الدهر. من ثم كانت" بنور" قلما نسويا جزائريا متميزا ينضاف إلى أصوات الرافعات لراية القضية الفلسطينية والمنددات بالهمجية الصهيونية.

الهوامش:

(1) غربة أبو نضال، تمرد الأنثى في الابداع النسوي العربي، المجلس الاعلى للثقافة العربية، القاهرة، (د.ط)، 2002. ص 276.

(2) فاطمة حسين عفيف، لغة الشعر النسوي العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص 22، 23.

(3) زهور كرام، السرد النسائي العربي" مقارنة في مفهوم الخطاب"، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2004، ص 94.

(4) هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق" السرد النسوي بين النظرية والتطبيق"، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة، مصر، ط1، 2014 ، ص 113 ، 115.

(5) زهور كرام، السرد النسائي العربي، ص 94.

(6) باكت، النساء الجديدات، تر/ توفيق أشرف، دار الأمين، القاهرة، مصر، ط1، 1992. ص 10.

(7) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي" الفضاء، الزمن، الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 223.

(8) حميد لحمداني: بنية النص السردي" من منظور النقد العربي"، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الدار البيضاء، ط 3، 2000، ص 51.

(9) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص 247.

(10) عائشة بنّور، نساء في الجحيم، منشورات الحضارة، بئر التوتة، الجزائر، ط1، 2016، ص 20، 21.

(11) المصدر نفسه، ص 22.

(12) المصدر نفسه، ص 183، 184.

(13) المصدر نفسه، ص 241.

(14) المصدر نفسه، ص 241.

(15) المصدر نفسه، ص 161.

(16) المصدر نفسه، ص 31.

(17) المصدر نفسه، ص 267.

(18) المصدر نفسه، ص 27.

(19) المصدر نفسه، ص 47.

(20) المصدر نفسه، ص 77،79.

(21) المصدر نفسه، ص 37.

(22) المصدر نفسه، ص 39.

(23) المصدر نفسه، ص 168، 169.

(24) المصدر نفسه، ص 46.

(25) المصدر نفسه، ص 47.

(26) المصدر نفسه، ص 53.

(27) المصدر نفسه، ص 60.

(28) المصدر نفسه، ص 62.